الباب السابع

الفن الإسلامى

* ملامح الفن الاسلامى الأصلية
* النسيج
* صناعة السجاد اليدوى
* فن الخطوط
* الرسومات الصغيرة
* أعمال السيراميك والخزف والفسيفساء
* صناعة المعادن
* صناعة الزجاج
* فن العاج
* فن العمارة الاسلامى
* قصور الصحراء
* الفن المعمارى فى العصور المختلفة

oberkandl.com

obeikandl.com

الفن الاســـلامى

ويتضمن :

١ ــ ملامح الفن الاسلامى الأصلية :

* ذكر القرآن الكريم التماثيل فى معرض حديثه عن أعمـــال الشيطان ، وكان المقصود من هذا ــ فى المقام الأول ــ هو التحذير من اتخاذ الأصنام آلهة تعبد من دون الله • كما جاء فى الحديث الشريف أيضا تحريم النبى صلى الله عليه وسلم على المسلمين اقامة التماثيل لأى كائن حى • وبهذا حرم الاسلام ما أباحه اليهود من تصوير الله بصورة انسان ، فرفع منزلة الله الى مقام لا يستطيع الانسان أن يصل اليه ، وبالتالى لا يمكنه تخيل صورته أو رسمها بأى شكل من الأشـــكال •

* التزمت دوائر الفن الاسلامى بهذا التحريم الى أقصى درجة ممكنة ، فلم يجرؤ مسلم على رسم صورة الله ، اذ أن أى محاولة فى هذا المجال ؛ هى رجوع ــ حسب ما جاء فى الحديث الشريف ــ الى عبادة الأصنام • غير أنه ظهرت بعض الصور فى مجال الفن الشعبى بعد انتهاء القرن الأول نتيجة الوقوع تحت تأثير الثقافة الاغريقية ، وفيما بعد بتأثير الثقافة الفارسية أيضا • فقد رسمت ــ على ســـبيل المثال ــ صور على الأوانى والسجاد ، فجاء معظمها فى شكل معبر جذاب • كانت هذه الأشكال بعيدة عن محيط الدين ، قصد بها جذب السياح القادمين من الغرب ودفعهم الى شرائها ، كما صدرت الى كل أنحاء العالم ، كما يحدث فى عصرنا الحالى ، لأن عدم ارتباطها بالزمن أكسبها الدوام والاستمرار عبر القرون •

* اذا تأملنا هذا الطراز الثابت ــ أى الذى لم يتغير بتقلب العصور والأزمان ــ فى الفن اليدوى ، لتأكد لنا أنه يتجه الى الزخرفة العامة ، ولا يعبر عن ميول الفنان الذاتية ، فقد تنازل عن التعبير عن ذاتيته فى سبيل ابراز الألوان والأشكال التى تبعث السرور فى نفس المشاهد • حتى الفن الذى يذكر بتاريخ وعصر معين لم يفقد اهتمام المشاهد وتمتعه باقتنائه ، وذلك على عكس الأعمال الفنية اليدوية فى

الغرب ، حيث يتحول نظر المشاهد من الشكل الى المضمون وملامح الفنان الذاتية ، وقد ركز اليابانى منها على ابراز المضمون لدرجة أن اتجاه الفنان فى جانب الشكل لم يفهم الا نادرا ، ان لم يظهر رفضه اياه •

أصبحت الزخرفة هى موضوع الفن الاسلامى الذى احتفظ بقواعد ثابتة — الى حد ما — على امتداد العصور ، حتى فى رسومات السجاد التى تحتوى على صور آدمية ، ورسومات حيوانية ، نجد أن الأشكال الهندسية المتداخلة معها ، تلقى اهتماما أكثر من الصور والرسومات ، لأنها ليست هى الأساس ، بل الزخرفة هى المحور الذى يقوم عليه العمل الفنى •

* لم يقتصر هذا الاتجاه على جانب دون آخر ، بل شمل جميع الجوانب اذ كان الفن مرآة الدين ، فالتاريخ بأحداثه التى لا حصر لها ، يعنى فى الاسلام معبرة الى عالم الألوهية اللازمنى • وقبول هذا المبدأ فى الأعمال الفنية ، يبرهن — أكثر من أى كتاب — على مدى تعمق العقيدة الاسلامية فى وجدان المجتمع • ومن هذا المنطلق تكونت فى كل مجالات الفن الاسلامى وحدة ، جمعت بين المبادىء الدينية ، وما يستعمله المؤمن فى حياته اليومية ، وحدة لا نعرفها نحن المسيحيين ، اذ يوجد عندنا حائط يفصل بين الفن الدينى والدنيوى ، فاذا دار حديثنا حول الفن المسيحى ، كان المقصود الفن الدينى ، أما اصطلاح « الفن الاسلامى » فهو يعبر عن المجموع الكلى للفن ، الذى أنتجته الشعوب التى تؤمن بالاسلام •

* تميز الفن الاسلامى من بداية عصره عن كل الاتجاهات الفنية فى العالم ، فقد وجه الى أهداف خاصة ، وخضع فى مجال الاستعمال للمنافسة • كذلك بذلت النقابات المهنية المختلفة جهودها فى مجال التسويق ، فاعتنت بجودة الصناعة ، وراقبت تنفيذ المواصفات فى التصنيع ، فانغرست فى نفوس العمال الرغبة فى تحسين ما ينتجون فأدى ذلك الى خلق بدائع فنية ، وروائع زخرفية ، اكتسبت شهرة على مدى قرون عديدة •

* أخرج الوعى الفنى شيئا من مجال اللاوعى ، ومن هنا جاء السحر الذى شع فى فن الزخرفة الاسلامية ، اذ يحمل اللاوعى — لدى كل انسان — فى أعمق درجاته الحاسة الأصلية لتذوق الجمال •

* استلهم الفن الاسلامى أفكارا من الفن الاغريقى والفارسى والمسيحى ، ولكن ما أخذه من هذه الفنون المختلفة أعاده فى شكل اتخذ طابعا مختلفا كل الاختلاف عن مصادر هذه الأفكار الثلاثة ، اذ عبر عن اتجاه اسلامى خالص يحمل بصمات الروح الاسلامية التى تخضع لارادة الله ، الذى حدد فى اللوح المحفوظ مصير العالم ككل ، وقدر لكل كائن حى قدره على حدة ، فما يباشره الانسان من أعمال هى فى واقع الأمر منسوبة الى الله • وفى ضوء هذا الرأى يستطيع المرء أن يدرك عدم وجود الاتجاه الطبيعى Naturalismus — بمفهومنا — على الرغم من أن الشعوب الشرقية كان — ولا يزال — عندها دائما حاسة واقعية قوية •

* انحصر الاعجاب بالصور فى الأشكال التى تجنح للخيال ، وكذلك أيضا الموضوعات التاريخية ، التى قدمت لفن الزخرفة وصناعة السجاد فرصة لرسم صور فنية فى اطار أكثر حرية من التصور الخيالى •

* قد تكون أفكار الفن الاسلامى غير معروفة فى كل العالم ، أو مختلطة على بعض الناس ، ولكن يستطيع كل انسان ادراكها فى مسجد أو حتى فى النقوش العربية ، اذ تعنى كل الشعوب الاسلامية بهذا النوع من فن الزخرفة التى تستخدم رسومات الزهر والبراعم ، ولا يستطيع أى فن فى العالم اتقان هذا التناسق الموجود فى لوحات الرسوم الاسلامية •

* وبالاضافة الى هذا فقد ظهر فى رسومات النسيج أشكال هندسية وصور للانسان والحيوان ، وخطوط عربية فى أشكال زخرفية بديعة • وهكذا دخلت الآيات القرآنية والحكم و لأمثال فن الزخرفة فصنع منها الفنانون لوحات زخرفية رائعة •

٢ — النسيج :

* عرف المسلمون فن النسيج من سكان المناطق التى فتحوها ، وبالذات من المصريين والسوريين والفارسيين ، فقد أخذوا منهم قواعده الفنية ، ولكنهم أضافوا اليها نماذج الرسومات والزخرفة ، بفضل ابتكارهم فى هذا المجال • ظهرت رسومات ثابتة — أى لا تزول بالغسيل أو التعرض لأشعة الشمس — على نسيج الحرير والصوف الفارسى ، وقلدته مصر وسوريا ، فتلقت المصانع طلبات عديدة لتوريد

هذا النوع من الملابس والستائر ، ولكن مدن النسيج الفارسية فاقت المدن الأخرى فى صناعة نسيج الحرير والقطن والصوف • وبعد تدمير المغوليين هذه المصانع استطاعت بعض هذه المدن أن تستعيد قدرتها على الانتاج تدريجيا • فأنتجت المنسوجات الحريرية ، وصدرتها الى أوروبا ، كما أضافت الى الرسومات الزخرفية المحلية رسومات أخرى استنبطت من عالم الأساطير ومن المجالات الثقافية لشعوب شرق آسيا كالأفاعى والسحب ، والطائر السحرى الذى اتخذ رمزا لعودة الروح •

* بلغت صناعة الأنواع الفاخرة عصرها الذهبى فى عهد الدولة الصفوية عندما طلبت قصور أوروبا ذلك النوع المرصع بالذهب والفضة من أصبهان ، وظلت تستورده منها ابتداء من عام ١٥٠٢ م على امتداد مائتين وخمسين عاما • ثم ضاعت هـذه الصناعة • بذهاب الدولة الصفوية ، اذ كانت هزيمتها أمام الأفغانيين انهيارا لهذه الصناعة •

٣ ــ صناعة السجاد اليدوى :

* يعتبر اقتناء السجاد الفارسى عندنا علامة على ثراء وتحضر من يملكها اذ ينظر اليه على أنه من الطبقة المميزة فى المجتمع • يندرج تحت كلمة « سجاد فارسى » العديد من أنواع السجاد الشرقى المستورد من بلاد كثيرة • فعلى الرغم من أن السجاد المصنوع آليا بلغ درجة ممتازة ، الا أن خبراء السجاد لا يزالون يفضلون السجاد المصنوع يدويا ، لأنه لم يزل محافظا بقيم وتقاليد الفن الشرقى •

* احتلت عقد السجاد ــ على امتداد التاريخ ، منذ القدم حتى الآن ــ مرتبة عالية ، لدرجة أنه يوجد حتى اليوم مراكز خاصة لبحث ودراسة صناعة السجاد اليدوى ، فقد توصل الباحثون الى أن هذه الصناعة كانت منتشرة فى القدم بين البدو الرحل فى وسط آسيا ، ثم انتقلت الى منطقة الشرق الأوسط ، ويرجع أقدم ما وجد من هذه الصناعة الى القرن الرابع قبل الميلاد ، ولكن الباحثين لم يجزموا بأنها لم توجد قبل هذا التاريخ •• ثم يمضى المؤلف فيبين المـادة التى صنع منها السجاد وطرق صـناعته المتنوعة فى العقد والرسومات ، ومجال استعمال المصنوع •

* عندما رحل « ماركو بولو » الى الشرق الأقصى كانت صناعة السجاد مزدهرة فى الأناضول ، فكتب عنها بأسلوب ينم عن اعجابه

ودهشته عندما شاهد هذه الصناعة • ازدهر هذا الفن فى آسيا الصغرى وفى مصر — فى عصر المماليك — ، فان أقدم القطع الشرقية الأصلية بما عليها من رسومات زخرفية جاءت من هاتين المنطقتين الاسلاميتين ، اذ تحمل طابعا اســلاميا ، وان اختلفتا فى الزخرفة ، اذ بينما كان السجاد المصرى — غالبا — قطعا صغيرة ، محلاة برسومات هندسية حول دائرة كبيرة فى الوسط ذات رسومات أشبه ما تكون بالميداليات ، نرى السجاد الأناضولى — وخاصة ما صــنع فى العصر العثمانى — يميل الى الزخرفة النباتية •

* أخذت مصانع الدولة المقامة فى قلب المملكة الاسلامية — ومنها ما كان فى كونيا وفى القاهرة وتبريز — نماذج رسوماتها الزخرفية من كتب الرسامين ، اذ توجد نفس النماذج فى الكتب وعلى السجاجيد ، ولهذا عندما نفقد قطعة من السجاد الأصلى ، فيمكننا التعرف على رسوماتها بسهولة من الكتب ، واعادة طبعها على قطعة أخرى • أخذت أشهر الرسومات الأصلية على السجاد ، من أشهر الرسامين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلادى ، فقــد كانت منافسة الألوان والأشكال فى ذلك الوقت على أشدها •

* وجد بجانب السجاد الفاخر أنواع أخرى من السجاد اليدوى للاستعمال الشخصى وللطبقات الشعبية ، اذ أن كل انسان فى حاجة الى سجادة للصلاة فأحدث هذا الطلب المتزايد رواجا فى صناعة وتجارة السجاد ، لدرجة أن البدو الرحل كانوا دائمى العمل فى نسج السجاد وكانوا يحملون معهم فى حلهم وترحالهم الأدوات التى يستعملونها فى نسج السجاد •

* ظل الشرق حتى اليوم أكبر مورد سجاد للعالم ، وكان السجاد التركى أوسعها انتشارا فى العهد العثمانى ، ولا زال مطلوبا فى كل أنحاء العالم حتى اليوم بجانب الفارسى والقوقازى •

٤ — فن الخطوط :

* أظهر الخطاطون قدراتهم الفنية فى رسم الكتابة العربية فى أشكال فنية رائعة بصرف النظر عن كون الكلمة العربية فى الأصل كان تركيا أو فارسيا أو عربيا ، فقد أوحت الكتابة فى حد ذاتها — ولا زالت توحى الى الآن — الى الفنانين بالابداع فى خلق اللوحات الفنية •

ويرجع السبب فى اهتمام الفنانين باستعمال الكتابة فى لوحاتهم الى تحريم التصوير فى الاسلام • فكيف يمكن للمرء أن يقترب من تعظيم كلمة الله ، سوى بذل كل ما يستطيع فى كتابتها بخط جميل بديع ••• وهكذا كانت العقيدة سببا فى تطوير فن الخطوط فى بداية النهضة الاسلامية •

* احتل الخطاط مكانا ساميا فى بلاط الخليفة فقد كان يكتب النصوص الطويلة من أوامر ومراسيم ورسائل دبلوماسية ، فكان خطه يبعث السرور فيمن يراه ، حتى لو كان أميا لا يعرف القراءة والكتابة • ولذا كان الخلفاء فى بغداد والمماليك فى مصر يدفعون مبالغ كبيرة فى لوحات الخطوط الجميلة ، ويطلبون كتابتها بمادة ذهبية أو فضية كما رغبوا فى اقتناء الكتب التى كتبت بخط جميل •• ثم يستعرض المؤلف أشكال الكتابة المختلفة ، وأنواع الورق المستعمل فيها ، وحجمه ودرجة جودته ، ثم ذكر أن بعض نسخ القرآن المكتوبة بخط اليد فى تلك العصور السابقة ، لا زالت موجودة فى متاحف القاهرة •

* استعرض المؤلف أنواع تجليد الكتب ، واستعمال الجلد ، والحرير فى صنعها وبين أن أنواعا عديدة من جلود الغنم والماعز استعملت فى تجليد الكتب فى جميع المناطق الاسلامية ، من فارس حتى أسبانيا • أخذ الفارسيون استخدام الحرير والمواد اللامعة فى تجليد الكتب من الصينيين ، كما زينوا المجلدات بالفسيفساء وبقطع من العاج •

* لم تستغرق كتابة الكتاب فقط وقتا طويلا ، بل أخذ التجليد فى بعض الحالات سنين طويلة ، اذا كان المجلد مكلفا بتحقيق رغبة ملك أو سلطان فى تجليد الصفحات المكتوبة بالذهب ، والمرصعة بالنقوش الفنية تجليدا يضفى عليها رونقا أكثر مما فى داخل المجلد •

* ولما كانت الصور الفنية — بجميع أنواعها — عاجزة فى العالم الاسلامى عن الاقتراب من نص القرآن الكريم فى مجال فن الخطوط ، فليس من المستغرب أن تحتل اللوحات الفنية للآيات القرآنية مكان الصدارة فى هذا المجال الفنى •

٥ — الرسومات الصغيرة :

* خضع تزيين الكتب لفن رسامى الرسومات الصغيرة ، فقد

قاموا بعملهم بعد الانتهاء من كتابة النص ورسم العنوان والزخرفة الهامشية .

* كما لم يكن عمل هؤلاء الفنانين قاصرا على ما يضيفونه فى الكتب المصورة ، بل استخدموا ريشتهم أيضا فى كتب علمية ، وكتب الرحلات . وسنحت لهم بجانب هذا العمل فرصة رسم كتابة أسماء الحملات الشهيرة مزينة بالورود والزهور ، وقد اقتصر الفن العربى فى هذا المجال على تزيين الكتابة بالصور ، أما الفارسيون فقد ابتدعوا موضوعات خاصة لهم ، استنبطوها من الأعمال الأدبية الحرة ، ومن الطبيعة وأضافوا اليها أنماطا من الحياة والمناظر الشخصية .

* كانت رسومات الصور الصغيرة فى القرون الأولى أمرا مكروها فى مجال الفن فى العالم الاسلامى ، وخاصة عند العرب بسبب نفور المسلمين من الصور ، وتردد المؤمنين كثيرا فى رسم صورة ، عندما كانت ظروف اللوحة الفنية تقتضى رسمها . ولهذا التزموا فى فنهم رسم الخطوط المتداخلة مع الكتابة ، وتركوا تصوير الأشخاص للمسيحيين والمانويين الذين اكتسبوا شهرة بين قومهم بفضل ابداعهم فى هذا المجال الفنى ومن هنا كانت الكتب المصورة التى صدرت فى القرون الستة الأولى من تاريخ الاسلام ، من عمل المسيحيين ، حتى القصور التى أقامها الأمويون ، لم يقم برسم ما فيها من صور سوى مسيحيين ويونانيين ، ورسامون عالميون جاءوا من بلاد غير اسلامية .

* استعاد الفن مركزه بعد اصابته فى الزحف المغولى ، فقد انتقل معهم — وهم شعوب آسيوية — تذوق الفن الصينى ، وخاصة ما احتوى على صور وخطوط مستقيمة ، وما أوحى باللين والتخيلات . تأثرت فارس — وهى وطن المغوليين — بالنماذج والألوان والتراكيب الأجنبية ، فتحررت من قيد تحريم تصوير الانسان وتجاوز الرسامون الحد فى هذا المجال ، لدرجة أنهم رسموا صورة للنبى محمد صلى الله عليه وسلم ، ففتحوا مجالا جديدا فى تاريخ الحياة الانسانية ، حيث رسموا صورا خيالية لأعمال التقرب الى الله ، كما يتصورها المتصوفون .

* كانت شاهنامة الفردوسى — التى احتلت مركزا مرموقا عند الفارسيين — مرجعا للرسامين أثناء الحكم المغولى ، ولكنهم استلهموا أيضا كثيرا من صورهم من قصص الحب التى أذاعها الشعراء فى

المجتمع ، سواء كان ذلك فى الجانب المدنى أو الصوفى وظلت مسيطرة بصورها ولوحاتها حتى القرن التاسع عشر الميلادى •

* كان مركز تجمع صفوة الرسامين فى أواخر الدولة التيمورية فى هراة ، وفى عهد الصفويين فى تبريز ، فكانت كلتا المدينتين — على التوالى — مقر أكاديمية الرسم العليا التى اكتسبت شهرة واسعة ، ثم انتزعت منها هذه الشهرة مدرسة قزوين المقر الثانى للصفويين ، حيث وصلت فى القرن السادس عشر الميلادى الى ذروة مجدها فبسطت أسلوبها على البلاط المنغولى فى الهند ، ذلك الأسلوب الذى مال الى تناسق الصورة والكتابة ، مع الملاءمة بين الألوان والأشكال •

٦ — أعمال السيراميك والخزف والفسيفساء :

* وجد فن الزخرفة الاسلامية سوقا كبيرة فى مجال تزيين الأوانى بالسيراميك لأنها صنعت لتستعملها كل طبقات المجتمع ، وقد أمكن اعادة ما وجد فى الحفريات من أوانى وقطع زجاجية الى حالتها الأصلية ، فأعطت الأشكال والالوان التى كانت طابع الفن فى العصور الاسلامية ، ففى العصر العباسى كانت زخرفة الأوانى نماذج مبسطة تبدو فى صورة خطوط زجاجية صفراء وسوداء وخضراء ، وبروز ناتئة على سطح الزجاج الشفاف ، كما طبعت نماذج زرقاء مالطية على أرضية بيضاء •

* يبدو من محاولة تقليد الفن اليدوى الآسيوى — وخاصة الفن الصينى — أنه كان مشهورا فى ذلك العصر ، فقد ظهر فن صناعة الثريات من محاولة تصنيع الخزف الصينى ، ونشأ عنها أيضا صناعة الأوانى الفاخرة التى حلت فى الاستعمال محل الأحجار الكريمة المحرم استعمالها • كان فن زخرفة الأشكال الزجاجية غاية فى الابداع من ناحية الأشكال والألوان فقد بذلت محاولة ضخمة لتطويرها فى جميع المناطق ، من فارس حتى أسبانيا •

* كان من عادة قدماء المصريين وسكان غرب آسيا أن يكسوا الحوائط بسائل لامع ، ولكن عندما غزا الاسكندر الأكبر هذه المناطق كانت هذه الصناعة قد اندثرت وطواها النسيان ، ومن المحتمل أن نماذج الأوانى المكسوة بالطبقة الزجاجية اللامعة بعثت هذه الصناعة من جديد فى القرن التاسع الميلادى ، وخاصة فى بلاط الخلفاء فى سامراء وبغداد

ثم أمكن تحسينها بواسطة التقدم فى مجال صنع المواد اللامعة فقد استطاعوا طبع ألوان — حمراء وصفراء وسمراء — لامعة على مسطح أبيض شفاف مثل الزجاج • ومن أقدم قطع هذا اللون من الفن محراب جامع سيدى عقبة فى القيروان ، فقد صنع فى سامراء ، ولا زال محتفظا بلمعانه حتى اليوم •

* كانت النقابات المهنية آنذاك حريصة على حصر سر المهنة فى محيط أبنائها ولكنها لم تستطع أن تمنع تسربها منعا كليا ، وعلى كل فقد توصل الفارسيون الى دقائقها ، فطوروها الى أحسن فى « سلطان آباد » و « كاشان » و « الرى » ثم اخترع أخيرا الفسيفساء اللامع • ولما كانت صناعته تحتاج الى وقت طويل ومال وفير فقد استعاض عنه الفارسيون برسم دوائر دقيقة على مسطحات كبيرة بصورة تعطى الايحاء بأنه فسيفساء • وجد هذا النوع فى بلاط الشاه عباس ، كما لاقى رواجا كبيرا فى أسبانيا •

* سارت تركيا فى عهد العثمانيين فى اتجاه النهضة الايطالية ، فتحررت من النماذج الفارسية منذ القرن السادس عشر الميلادى ، ومنذ ذلك التاريخ وهى تلبى فى فنها الأذواق الأوروبية التى تأثرت بالطابع الشرقى •

٧ — صناعة المعادن :

* أنجزت البلاد الاسلامية فى مجال صناعة المعادن انجازات رائعة ، فقد اتخذ المسلمون البرونز والمعادن الخام أرضية لزخرفتهم لأنهم رفضوا استعمال الذهب والفضة امتثالا لتحريم القرآن الكريم استخدامها فى الزينة ، ولكن على الرغم من هذا التحريم فقد ذكر ابن خلدون أنهما استخدما فى قصور العباسيين •

* يبدو أن لجوء العمال الفنيين الى تطعيم المعادن كان راجعا الى ندرة وجود الأحجار الكريمة فى المملكة الاسلامية ، فقد طعم البرونز بخيوط من الأحجار الكريمة فثبتت فيها بطريقة خاصة ، يصعب انتزاعها • انتقلت هذه الصناعة من سوريا الى فينيسيا ، ومنها الى أوروبا •

* لم يتردد الصناع فى رسم صور الكائنات الحية فى زخرفة القطع المعدنية ، فقد ورثوا هذا الاتجاه عن الساسانيين فى الفرس ، وكان المسيحيون هم أول من قلدوا الفرس فى هذا المجال ، لأنهم لم

يكونوا ملزمين باتباع تعاليم القرآن الكريم تحريم رسم صور الكائنات الحية ، وهكذا ظهرت صور الحيوانات — وفى بعض الأحيان صور ذات مدلول معين من العالم العلوى — على الأوانى والأسلحة • وحوائط المنازل وكانت المباخر المصنوعة على هيئة حيوان من أحب الأشياء عند الناس ، كما وجدت الأوانى المصنوعة على صورة الحية — وعلى صور حيوانات الأساطير أيضا — فى أوروبا تقليدا لمثيلاتها المصنوعة فى الشرق ، كذلك قام الخطاطون بأعمال فنية على القطع المعدنية وخاصة على الأسلحة ، وكانت ترفع من قيمتها لو كان المكتوب عليها آية قرآنية •

* نشأ فن تطعيم المعادن فى فارس فى القرن الثانى عشر الميلادى ، ولكن القاهرة أصبحت المركز الرئيسى له بعد ذلك بأعوام قليلة ، فتطور فيها وازدهر ازدهارا لا مثيل له •

٨ — صناعة الزجاج :

* كانت بلاد فارس وطن صناعة الكريستال والزجاج أيضا ، ثم انتشرت فى جميع البلاد الاسلامية • ويوجد الآن فى الكنائس المسيحية وقصور الأمراء التى أقيمت فى القرون الوسطى جبال من الأوانى المصنوعة فى الشرق من الكريستال والزجاج • وتنسب الأبحاث كثيرا من هذه القطع الفنية الرائعة الى عهد الفاطميين فى مصر ، وهى الفترة الزمنية المحددة فيما بين عام ٩٠٩ م ، وعام ١١٧١ م ، فقد كان حجاج أوروبا المسيحيون مغرمين باحضار قطع تذكارية مصنوعة من الكريستال على صورة حيوانات معهم الى أوروبا كما أحضروا معهم أيضا قوارير لاستخدامها فى المجالات المختلفة كأوانى للعطور والأدوية •• و •• و •• الخ •

* زينت الأباريق الكبيرة ذات المقبضين ، وأقداح الشرب ، والزجاجات (القنان) من الكريستال بصور الحيوانات كالأسد والزرافة ، وبأشكال الطيور على اختلاف أنواعها • كما وجدت أيضا أوانى زخرفت بخطوط فقط ولما كانت مادة الكريستال تعتبر من الكماليات ، فقد نافس الزجاج المجلخ فن الكريستال ، اذ غطى انتاجه الاستعمال المنزلى كالأكواب والقنان ، والأدوات المستعملة فى الكتابة ، حتى مصابيح الاضاءة المطلية بالذهب والفضة فى المساجد •

* اشتهر الصناع المهرة فى عهد الصفويين — وعلى امتداد قرون لاحقة — ، بصناعة الزجاج الملون بالألوان المفرحة ، فقد تناسقت ألوانهم الحمراء والصفراء والخضراء مع أشكال القطع الفنية ، سواء كانت ابريقا أو زهرية ، أو صهريجا للزينة أو للاستعمال •

٩ — فن العـــاج :

* أعجب جنود الحملات الصليبية القادمين من الغـــرب بالفن اليدوى الاسلامى فأخذوا معهم كل ما وقع فى أيديهم الى أوطانهم ليهدوه الى ذويهم أو ليطلعوهم على روعة هذا الفن • كان من بين هذه الهدايا والقطع التذكارية ، قطع فنية من العاج ، نحتها المسلمون على أشكال فنية ، بلغت درجة الكمال الفنى فكانت دقات قلب كل امرأة ترتفع من الفرح عندما يهدى لها زوجها العائد من الشرق مع الحملات الصليبية علبة مجوهرات مطعمة بالعاج • وكانت الخناجر ذات المقابض المصنوعة من العاج من الأسلحة الممتازة ، كما شبع من الأبواق سحر حمل المشاهد على الاعجاب بها ، لمـــا فيها من العاج المنحوت بشكل فنى نادر •

* ازدهر فن العاج فى الأندلس وصقلية ثم انتشر من هناك فعم جميع بلاد الشرق الاسلامى ، كانت القطع الفنية تنتقل من هنا وهناك فجاءت قطع فنية من مناطق أخرى الى تلك المنطقتين وطن العـــاج الأصلى ، لأن التبادل التجارى فى ذلك العصر كان نشطا لا يتوقف عن الحركة أبدا ، فالتجار دائمو الرحلات الى الأماكن التى تروج فيها بضاعتهم ، فحيث لا يرغب الناس فى اقتناء الأشكال المنحوتة يعرض التجار قطع الشطرنج المصنوعة من العاج ، وهكذا يرحلون ببضاعتهم الى حيث توجد الرغبة عند الناس لاقتنائها •

* تدل المهارة المماثلة لمـــا فى صناعة العاج فى نحت الأشكال الخشبية على التفوق الاسلامى فى هذا الفن ، اذ على الرغم من ارتفاع ثمن الخشب ارتفاعا فاحشا — فبسبب نقص الانتاج المحلى ، وخاصة فى مصر والعراق • استوردوا الخشب الهندى — لم يهملوا صناعة المنابر ومحامل الكتب للمساجد وقصور الأغنياء • كذلك ظهرت أيضا الشرفات ذات الأســـوار الخشبية فى القاهرة وبغداد ، كما صنعت الأبواب والشبابيك من الخشب وزينت بالرسومات والتماثيل المطعمة بالعـــاج •

١٠ — فن المعمار الاسلامى :

* أراد الأمويون المحافظة على الاسلام كواجهة ظاهرية ، بجانب النمو فى جانب السلطة الدنيوية • ولما كانت هذه المملكة واقعة تحت تأثير الحياة البدوية التى خرجت منها فقد دارت حياتها بين مقرها فى دمشق وبين الصحراء ، اذ بينما كان الخلفاء حريصين على الجانب الدينى بجانب السلطة السياسية ، مال اخوانهم فى الدم الى الاقامة فى الصحراء ، حيث شيدوا لهم قصورا فخمة هناك • وفى هذا العصر — وهو عصر صدر الاسلام — لم يكن الفن المعمارى قد تحرر بعد من النماذج البيزنطية والمسيحية ، ويدل على ذلك التجهيزات الداخلية لهذه القصور ، وكذلك النقوش وأسلوب الزخرفة ، التى جلب لها فنانون يونانيون وبيزنطيون • وفى مقابل هذا تطور الطراز الأموى فى مجال الهيكل الخارجى المعمارى تطور ذاتيا فأصبح طرازا اسلاميا •• ثم يمضى المؤلف فى وصف اقامة المساجد بمآذنها فى هذا العصر وزخرفتها ، ويخص بالتفصيل المسجد الأقصى وبناء قبته بأمر الخليفة عبد الملك وزخرفتها بالفسيفساء والآيات القرآنية ، ويرى أن وجوده فى المنطقة علامة على سيادة الاسلام فى مواجهة الدولة اليهودية •

١١ — قصور الصحراء :

* قلد الأغنياء الخلفاء فى لاهتمام بفن المعمار ، ومنهم من اهتم ببناء المساجد وزخرفتها • فاذا كان الخلفاء الأربعة الراشدون — الذى نفذوا تعاليم القرآن الكريم تنفيذا دقيقا — قد حرموا على أنفسهم كثيرا من متع الحياة الدنيوية خوفا من أن يبتعدوا عن الأسلوب الذى التزمه النبى — صلى الله عليه وسلم — فى حياته فلم يشيدوا قصورا ولم يزخرفوا دورا ، فان الوضع قد تغير فى عهد الأمويين ، فشيدوا لهم قصورا فى الصحراء ليستريحوا فيها من عناء السياسة والادارة ، وقد أطلق على قصر الصحراء « مشتى » •• ويمضى المؤلف فى وصف هندسة بناء بعض هذه القصور وزخرفتها وتعرض بالتفصيل لكل لوحة من لوحاتها ، كما بين معالم الفن الساسانى والرومانى ثم قال :

« كانت معالم الفن فى العصر الأموى هى الأخذ من كل النماذج الفنية الموجودة سواء كانت منحدرة من شعوب آسيا أو من اليونان أو من الرومان ، اذ يجد المرء فيه سمات الفن اليونانى والرومانى ، وفنون الشعوب الآسيوية حتى الهند » ••

١٢ — الفن المعمارى فى العصور المختلفة :

تناول المؤلف معـــالم الفن المعمارى فى كل عصر من العصـــور الاسلامية بالتفصيل مبينا أهم المعالم المعمارية من مساجد وقصور ، ومفصلا فى وصف دقائقها .. وما بقى منها وما ضاعت معالمه ، وأفرد لكل عصر بابا ، فجاءت فى كتابه على التوالى :

(ا) فن المعمار فى العصر العباسى .

(ب) بغداد المدينة الدائرية .

(جـ) الفـــاطميون .

(د) الفن فى العصر السلجوقى .

(هـ) الفن فى العصر المملوكى .

(و) الأبهة فى الدولة التيمورية .

(ز) الفن فى الدولة الصفوية الفارسية .

(ح) أسبانيا وشمال أفريقيا .

(ط) الفن فى العصر العثمانى .

ثم ختم الباب بقوله :

« كان الاســـلام بالنسبة لأوروبا — على الرغم من قربه فى أسبانيا — عالمـــا غريبا ، بل عالم المغامرين والأعداء ، وعلى الرغم من هذا فقد أمكن الاستمتاع بفنه الجميل دونما ضرر كما نقلنا عنه انجازاته الهائلة فى مجال التجارة ، ومجال الأبحاث العلمية ، ولكن ظل بين عقل الدين الاسلامى بانتاجه الخصب فى كل مجالات الحياة ، وبين الدوائر المسيحية هوة عميقة لا يمكن التغلب عليها .

* تدين كل البلاد — من أسبانيا حتى الهند — بالطاعة والخضوع لتعاليم الاسلام غير أن كل تفاسير هذه التعاليم اختلفت تبعا لمـــا يراه المفسر فى ضوء المتغيرات الاجتماعية التى يحياها . ومع ذلك لم يبعدهم الثراء الواسع — الذى عم بعض مناطقهم اليوم — عن تذكر الله ، بل زاد من قربهم له ، وقوى عقيدتهم فى وحى الله الواحد القهار » .

* * *